عرض سريع لسورة براءة

وموقف المنافقين فى تبوك

بقلم الدكتور : محمد البيومى صدقة
مدرس التفسير بالكلية

نزل معظم سورة براءة فى شأن غزوة تبوك وقد كان الحديث عن المنافقين فيها شأن كبير ، ويتضح ذلك مما ورد لهذا السورة أسماء عديدة كلها تشير إلى كشف أسرار المنافقين وبيان مخازيهم فى تلك الغزة وفى أعقابها .

فقد أورد البيضاوى وغيره أن سورة براءة لها عدة أسماء منها :

براءة ، والتوبة ، والمقشقشة ، والبحوث ، والمبعثرة ، والمنقرة ، والمثيرة والحافرة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمنكلة ، والمشردة ، والمدمرة ، والبحث عن حال المنافقين وإثارة حالهم والحفر عنها ، ومايخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم أى يهلكهم .

ويحسن لمن أراد أن يتفهم أمر المنافقين بصفة عامة وفى غزوة تبوك بصفة خاصة أن يدقق النظر فى هذه الصورة . ففيها تصوير لصنوف النفاق وألوانه وكشف لطابع اللؤم والخسة والخداع والجبن والضعف والكذب والأنانية وفيها سخرية لاذعة بالنفاق وأهله وشد لأزر المؤمنين وعتاب وتربة لقليل منهم آثروا الدعة ولازموا الصدق .

وقد تضمنت السورة فى المقطع الأول فيها على ماذكره صاحب الظلال – من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين – تحديدا للعلاقات النهائية

بين المعسكر الإسلامى والمشركين عامة فى الجزيرة مع إيراد الأسباب الواقعية والتاريخية والعقدية التى يقوم عليها هذا التحديد الخ .

أما المقطع الثانى من السورة فقد تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة مع بيان الأسباب العقدية والتاريخية والواقعية التى تكشف عن طبيعة الاسلام وحقيقته المستقلة وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله عقيدة وسلوكا .

وفى المقطع الثالث يبدأ النعى على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهيز للغزة فتثاقلوا إلى الأرض وتكاسلوا عن التغير وهؤلاء ليسوا كلهم من المنافقين .

ثم يجىء المقطع الرابع فى سياق السورة وهو أطول مقاطعها ويستغرق أكثر من نصفها فى فضح المنافقين وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم ، ووصف أحوالهم النفسية والعملية ومواقفهم فى غزوة تبوك وفى أثنائها وماتلاها ، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة فى الصف المسلم وإيذاء رسول الله ﷺ والتخلص من المؤمنين ، ويصاحب هذا الكشف تحذير المؤمنين من كيد المنافقين وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء ، والمفاضلة بين الفريقين وتميز كل منها بصفاته وأعماله ، وهذا المقطاع يؤلف فى الحقيقة جسم السورة ويتحلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح وسيأتى الحديث عن ذلك .

والمقطع الخامس فى سياق السورة هو الذى يتولى هذا التصنيف منه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية جماعات أخرى .. الأعراب وفيهم المخلصون والمنافقون والذين لم تخالط قلوبهم الشاشة الإيمان، المنافقون

من أهل المدينة وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى ولم يصبروا فى بوتقة الإسلام تماما .

وطائفة مجهولة الحال لا يعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها يتسترون باسم الدين — والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها فى اختصار مفيد وتقرر كيف تعامل فى المجتمع المسلم(١) .

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » .

«ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم » .

« ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم » والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ورضوا عنه وأعدلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ، وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم .

كانت غزوة تبوك فى رجب من السنة التاسعة للهجرة بعد عودة الرسول

---

(١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب حـ ١٠ ص ٨٢

(٢) براءة ٩٧ — ١٠٦

ﷺ إلى المدينة وبعد فتح مكة وانتصار المسلمين فى حنين حيث بلغته ﷺ أنباء خطيرة على تحركات يقوم الروم وخلفاؤهم من العرب بها ضد الدولة الاسلامية قبل أن يشتد عودها وتنفرد بقيادة الجزيرة العربية وقد قامت هذه القبائل فعلا بإرسال طلائعها إلى البلقاء من أرض الشام .

فعزم ﷺ على أن يرسى العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة لأنه لايقبل مساومة فى إتاحة الفرصة الكاملة لدعاة الاسلام أن يتوكوا أحرارا يعرضون دينهم على الناس فإن راقهم دخلوه وإن ساءهم تركوه كما يجب أن تكون الفرصة المتاحة معقولة لافهام الناس ما يدعون إليهم أما أن تقطع أعناق الدعاة وتقام الأسوار الكثيفة فى وجوهم كما حدث فى مقتل الحارث ابن عمير الأزدى مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمر والغسانى فى مؤته فهذا ما يقاومه الاسلام بالقوة وهو مطلب لاغبار عليه .

ومن هنا أمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لغزو الروم ومن والاهم وكان الوقت صيفا والصحراء تحترق نارا والبلاد تعانى جدبا والطريق طويل شاق والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص لقطع المسافات الطويلة عبر الصحراء خاصة أنهم سيقاتلون قوما هم سادة الدنيا فى ذلك الوقت .

ولم يكن ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فجلى للمسلمين أمرهم وبينه لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو(١) وقوته ليتأهب الناس لذلك ويأخذ والأمر عدته على ما يليق به .

كانت هذه الظروف القاسية محكا للإيمان وقوته ، فالايمان الثابت لا يعبأ بالمتاعب مهما شقت أن يخوضها فى سبيل الله وبصحبة رسوله الكريم .

---

(١) ابن هشام ٤ — ١١٨

والظروف التى اكتنفت إعداد هذا الجيش سمى جيش العسرة والآيات التى نزلت متعلقة بجيش العسرة تعتبر أطول ما نزل فى قتال بين المسلمين وخصومهم ، وقد بدأت باستنهاض الهمم حين تثاقل البعض وتباطأ وعاتب عليهم إيثار الدنيا على الآخرة وأشعرتهم أن الله تعالى لا يقبل ذرة من تفريط فى حماية دينه ونصرة نبيه ﷺ .

يقول الله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذا يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا . . .)(١) .

وقد كانت هذه الآيات حافزا ألهب النفوس العامرة بالايمان فذهب عنها ما كان ألم بها من الحرص على الدنيا والتثاقل عن القتال وحرص جميع القادرين على النفر ، كما نشط هؤلاء الذين كانوا قد تعللوا وقالوا : منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والمنتشر به أمره .

فلما نزل قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)(٢) .

عدلوا عن التعليل ونشطوا للتجهيز للقتال شبابا وشيوخا وأغنياء ومساكين واشتدت درجة الحرص حتى ذهب جماعة من الأنصار كانوا أهل حاجة وفقر إلى النبى ﷺ يطلبون منه ما يحملهم فلم يجد لهم شيئا

---

(١) براءة ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

(٢) براءة ٤١

ورجعوا باكين ولذلك سموا بالبكائين وقد قبل الله عذرهم كما قبل عذر الضعفاء والمرضى وأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون من حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون)(١) .

وفى شأنهم روى أبو داود عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم فيه) قالوا : يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ .

قال : (حبسهم العذر) :

وهكذا ظهرت نوايا القلوب ومقدار ما استودعته من إخلاص وصراحة ونشاط فقد كان هنالا أغنياء وأخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإعداده، وكان هناك أيضا الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم فى سبيل الله ثم أعجزتهم الوسائل فسحت أعينهم الدمع لهذ الحرمان .

وكان من الطبيعى أن يتضح شأن المنافقين وسط هذا التنافس الشديد وأن تعقد بهم كراهيتهم للإسلام وأهله عن إسداء أى عون له فضلا عن أن يعدوا الخروج عدة أو يتمنوا الخارجين عودا .

ومن هنا أخذوا يلتمسون الأعذار ويتحايلون على الكذب ويؤكدون باطلهم بالخداع .

---

(١) براءة ٩١ — ٩٢

وهذه فقرات من سورة براءة تحدثنا عن المنافقين موضحة بعض صفاتهم وغاياتهم وتحايلهم على المعاذير الباطلة خداعاً والزاماً وجبناً وخسة .

يقول الله تعالى (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) .

« عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين » .

« إنما يستئذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون)(١) .

(ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون)(٢) .

---

(١) براءة ٤٢ — ٥٠

(٢) براءة ٥٦ — ٥٩

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ، ألم يعلموا أنه من يحاد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم ، يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ، المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقون هم الفاسقون ، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم)(١)

(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير . . يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ، ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ! الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم)(٢) .

---

(١) براءة ٦١ — ٦٨

(٢) براءة ٧٣ — ٧٩ .

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ، ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ، ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ، وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين)(١) .

تحدثنا الآيات عن المنافقين ومن ظهرت عليهم أعراض الضعف ممن يندسون فى صفوف المسلمين باسم الإسلام بعد أن غلب الإسلام وظهر رأى هؤلاء أن حب السلامة وكسب العرض الدنيوى يقتضيان أن يحنوا رءوسهم للإسلام وأن يكيدوا له من داخل صفوفه بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له من الخارج .

فتفضحهم الآيات وتكشف سترهم وتظهر تفاهتهم وتهافتهم وهممهم الساقطة وعزائمهم الضعيفة وقلوبهم المنخوبة وأرواحهم الهزيلة :

لو كان الأمر أمر عرض دنيوى قريب المنال وسفرا قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك — ولكنه الجهد الجهيد والسفر الطويل والجهاد الشاق الذى تتقاصر عنه هممهم هم وأمثالهم ممن تعرفهم البشرية فى كل زمان ومكان فيتخلفون عن الركب ويميلون الى عرض تافه أومطلب رخيص .

وسيحاولون النعمة عليكم مؤكدين لكم بالحلف لو استطعنا لخرجنا

---

(١) براءة ٥٦ — ٥٩ (٢) براءة ٦١ — ٦٨

(٣) براءة ٧٣ — ٧٩ (٤) براءة ٨١ — ٨٦

محكم فهو الكذب وهو الضعف اذ لا يكذب الا ضعيف وان بدا فى بعض الأوقات فى صورة القوى يملقون أنفسهم بهذا الحلف وهذا الكذب الذى خيل اليهم أنه سبيل النجاة بنظرهم القاصر لأنهم عميت بصائرهم وخربت قلوبهم من الإيمان والله يكشف الكذب ويهلك الكاذب بكذبه الكاذب يكذبه فيفضحه فى الدنيا ويهلكه فى الآخرة .

والله يعلم إنهم لكاذبون لأنهم أسباب الخروج للغزو فلا عذر لهم ولكنهم يتحايلون ويتحلون الأعذار الباطلة .

ثم يتلطف الله تعالى مع نبيه ﷺ فيقدم له العفو قبل العتاب (عفا الله عنك لم أذنت لهم) حيث كان إذنك ستارا جعلهم يقعدون خلفه عن الجهاد حين قدموا لك المعاذير الباطلة ، ولو أنك تمهلت لتبين لك أنهم كاذبون وأنك سواء أذنت لهم أولم تأذن فإنهم سيتخلفون عن الجهاد وحينئذ ينكشف أمرهم وتظهر حقيقتهم ويزول عنهم نقاب النفاق .

ولكن القرآن الكريم لم يدعهم بل قرر القواعد التى تحبط خداعهم وتظهر نفاقهم وجبنهم إذ يقول : (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليـــوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون)(١) .

فالمؤمنون بالله وباليوم الآخر يوم الجزاء لا يستأذنونك أبدا فى ترك الجهاد والفرار منه لأنهم يعلمون أنه فريضة وأنهم ينالون به أعظم الثواب فهم يسارعون إليه خفافا وثقالا بالأموال والأنفس ابتغاء مرضاته سبحانه وثقة بما عنده بل أن المؤمنين بالله واليوم الآخر يتطوعون للجهاد دون أن يستحثهم أحد ويأمرهم بل ويسارعون إليه أما هؤلاء الذين ارتابت قلوبهم

---

(١) البراءة ٤٤ ، ٤٥

وخلت من اليقين فإنهم يتباطئون ويلتمسون المعاذير لعل عذرا منها يرفع عن كاهلهم ثقل هذا الأمر وتكاليف هذا الظاهر من إسلامهم فهم مترددون حيارى وهلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ولو أنهم أرادوا الخروج لخرجوا معك للغزو والجهاد أعدوا الأمر عدته ولكن الله جل جلاله شاءت إرادته أن يثبطهم ويضعف همتهم وأن يحملهم على هذا النحو من التخاذل وسقوط الهمة لأنه كره خروجهم معكم لما علموا منهم من النفاق وتوليا السوء للمسلمين(وقيل اقعدوا مع القاعدين وتخلفوا مع النساء والأطفال والعجزة فذلك هو مكانكم الذى يليق بالهمم الساقطة والقلوب الخائرة الجاوية من قوة اليقين — ولأنهم (لو خرجوا فيكم) مندسين فى صفوفكم (مازادوكم إلا خبالا) لأنهم جبناء مخذولون ، والفور والضعف خطر على الجيوش فلن يبثوا فيكم إلا الضعف والاضطراب والفوضى (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) ولأسرعوا بالسير بينكم بالنميمه والتفرقة والتخذيل :

وفى ذلك تسلية للمؤمنين عما مضى وتحذير لهم فيما هو آت (وفيكم سماعون لهم) يطيعونهم أو يستحسنون حديثهم ويستنصحونهم لأنهم قد لا يعلمون حقيقة حالهم فيؤدى ذلك إلى وقوع شر كبير .

ولكن الله تعالى يرعى دينه ويحمى رجاله ودعاته والمجاهدين فى سبيله (والله عليم بالظالمين) الذين يحاربون الله ورسوله ويقفون بالمرصاد لدعوة الحق من المشركين والمنافقين وليس هذا تجنيا عليهم أو افتياتا ولكنه الواقع والتاريخ يسجل عليهم مواقفهم ويحصى عليهم افاعيلهم(لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) فى كيدهم وكيد أصحابك وخذلان دينك حين انخذلوا عنك فى أحد وفعلوا مافعلوا من الفتن والتثبيط وبث الإشاعات المغرضة والتخذيل بالباطل فيما جاء بعد أحد من غزواب وما كان من حديث الإفك وترويج مثر لبلبة المسلمين وزعزعة الثقة فى النفوس (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون)

ثم اتذكر الآيات نماذج من أحوالهم وصفاتهم وأعذارهم المفترة الكاشفة عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

روى محمد بن اسحاق عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة قالوا :

قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه (أى لغزوة تبوك) الجد بن قيس أخى بنى سلمة : (هل لك يا جد فى جلاد بنى الأصفر ؟) يعنى الروم فقال : يارسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : (قد أذنت لك) وفى الجد نزل قوله تعالى :

(ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) وكان الرد عليه وعلى أمثاله «ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» .

ثم تسترسل الآيات فى هتك أسرارهم وكشف مكنون قلوبهم ومشاعرهم نحو النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (إن تصبك حسنة تسؤهم) وأنهم ليفرحون لما يحل بكم من المصائب (وإن اصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) واحتطنا لأنفسنا وقعدنا عن الكفاح والجهاد (ويتولوا وهم فرحون) .

وكان بعض المنافقين الذين اعتذروا عن الجهاد وقد عرض ماله على الرسول ﷺ حتى يظهر أنه موال للصف المسلم وأن اعتزاره حتى ليظل خطاءه سارى المفعول مع المؤمنين فرد الله تعالى عليهم مناورتهم (قل أنفقوا طوعا أوكرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين وما منعهم

والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال إرجافا وترهيبا للمؤمنين(١) فأعلم الله نبيه بما قالوا فلما كفف لهم عن مقالتهم قالوا (إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ثم تستطرد الآيات مصورة حقيقة المنافقين العامة عارضة صفاتهم الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين وتحدد العذاب الذى ينتظرهم .

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون المنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون ، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) .

ولم يقف الأمر بالمنافقين عند هذا الحد من الهروب والتحلات والكذب والفتن والشائعات والتخزيل وسوء الطوية وفساد النية وتمنى الشر للرسول ﷺ وللاسلام والمسلمين بل تعداه الى التدبير والعمل حيث لايتهم الرسول وأغضى عنهم كثيراً حتى بلغ الحلم غايته فأمره سبحانه أن يبدأ خطة جديدة معهم وأن يلحقهم بالكفار فى مجاهدتهم والغلظة عليهم .

(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) وقد اختلف فى الجهاد والغلظة على المنافقين فقيل بالسيف وقيل بالسياسة فى المعاملة وكشف خبيثاتهم ومعاملتهم حسب الظاهر وترك سرائرهم لله تعالى انه ﷺ لم يرض بقتالهم حتى لايقول الناس ان محمدا يقتل أصحابه .

(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا) .

---

(١) سيرة ابن هشام .

أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .

فهم ينفقون عن رياء وخوف لا عن إيمان وثقة ، وسواء عليهم بذلوه عن رضا يتذرعون به خديعة للمسلمين أو بذلوه عن كره خوفا من انكشاف أمرهم فهو في الحالتين مردود ولا ثواب له (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) فما هي بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنأوا بها ولكنها الفتنة يسوقها إليهم ويعذبهم بها .

ويستمر سياق السورة هكذا في الحديث عن المنافقين وما يظهر منهم من أقوال وأعمال تكشف عن أحوالهم التي يحاولون سترها فلا يسترها فلا يستطيعون لأن الوحي يترصدهم ويكشف سترهم فمنهم من يلمز النبي ﷺ في توزيع الصدقات ويتهم عدالته ويعيب عليه وهو المعصوم (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) ومنهم من يقول هو أذن يستمع لكل قائل ويصدق كل ما يقال وهو النبي الفطن ، ومنهم من يدس نفسه في الصف المسلم مؤكدا ذلك بمختلف التأكيدات (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم) لأنهم جبنا ومرجفون (ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) .

إنهم يخشون عباد الله ولا يخشون الله فيحلفون لعباد الله ليرضوهم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين .

وإنهم يحذرون أن يكشف الله سترهم ويفضح أمرهم (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) فقد كانوا يستهزءون بالنبي ﷺ وبالمسلمين حين اتجهوا للجهاد في تبوك فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟

ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة نختار منها هذه الرواية حيث تتلاءم مع قوله تعالى (وهموا بما لم ينالوا) لأن هذه الرواية تتضافر مع ماورد من روايات تدل على أن المعنى بها ما أراده جماعة من المنافقين فى أثناء العودة من غزوة تبوك من قتل رسول الله ﷺ غيلة .

قال الإمام إحمد رحمه الله ـ حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله ابن جميع عن أبى الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا ينادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ ـ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة د ق . ق : م حتى هبط رسول الله ﷺ ورجع عمار فقال ياعمار : هل عرفت القوم ؟ فقال لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : هل تدرى ماأرادوا؟ قال : فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال : نشرتك بالله كم تعلم كان اصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر : فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال قد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا والله ماسمعنا منادى رسول الله ﷺ ـ وماعلمنا ماأرادوا القوم ـ فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقية حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

وبعد فإننا نكتفى بهذه العجالة فى بيان موقف المنافقين فى غزوة تبوك وإن كان البيان القرآنى فى هذه الغزوة يفيض رقة وإعلنابا وبيانا وإعجازا وتصويرا لكثير من أحوال المنافقين قبل الغزوة وبعدها وفى أثنائها نظرا لضيق الجزء المقرر لهذا البحث فى المجلة وأملنا ندرك الوفاء بهذا البحث فى المستقبل إن شاء الله كشفا لأسوأ الطبائع البشرية وبيانا لخصائص أعداء الأديان والملة ولفتا لأنظار المسلمين إلى ميدان غريب من ميادين الحرب العنيفة التى تدار ضدهم فى كل زمان ومكان وتحذيرا بالماضى وعواقبه

الوخيمة واستخلاصا للعبرة منه للنظر فى صلاح أمر الحاضر والمستقبل

والله أسأل أن يهبنا الإخلاص له وحده والعمل من أجله وحده وأن يجعلنا من المتجردين لله المحبين فيه وفى رسوله ﷺ السائرين على نهجه المتبعين لهديه اللائذين بحول الله وقوته الملازمين لطاعته إنه سبحانه أكرم مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير . ؟

الدكتور
محمد البيومى صدقه
مدرس التفسير بكلية
أصول الدين والدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر